المسلمون والقبط

النبذة السادسة

انما نطلب حفظ حقوقنا لا إضاعة حق للقبط

اذا كنت اكتب لاجل ايذاء القبط أو التحريض على ايذائهم ، أو لاجل محض مدافعتهم ، ومنعهم مما لا أراه حقالهم ، فلا حملت بناني قلما ، ولا حفظت كما أمرني الرسول صلى الله عليه وسلم ذمة ورحما ، بل أشهد الله انني لا أكتب الا لاجل الخير والمصلحة دون الايذاء والمفسدة . ولفوائد ايجابية . لا لاغراض سلبية . واذا كان المؤتمر المصري يجتمع ليأمر بتخطئة القبط في مطالبها فقط فلا خير في هذا المؤتمر واجله ان يكون عمله سلبيا فقط

انني منذ خبرت حال مصر رأيت ان للقبط روابط ملية . دون الرابطة العامة المصرية . بها يتعاونون ويتناصرون . وعليها يجتمعون ويتحدون . ولها يتعلمون ويتربون ، واليها يرجعون . فهم بها أمة كما يقولون . وليسوا عضوا من جسم الامة المصرية اذا اشتكى عضو من سائر الاعضاء تألموا له . بل هم جسم تام مستقل بمقوماته ومشخصاته القومية . وانما يتصل بما يجاوره ليتغذى منه ويمد حياته لا ليمده ويغذيه

هذا ما رأيت عليه القبط فأكبرته وحمدتهم عليه .

ورأيت المسلمين على غير ذلك . رأيتهم يتخاذلون ويتفرقون ، ويمتص غيرهم مادة حياتهم ولا يشعرون . تتعادى أحزابهم ويصفون اكثر النابغين فيهم بخيانة الامة والوطن . وهو وصف لا ينطبق على أحد منهم وانما علتهم الضعف واقل سببيه تخاذل أمتهم ، ليس لهم تربية ملية تجمعهم ، ولا وحدة في التعليم تضمهم ، وثروتهم عرضة للزوال باسرافهم لا يشعر بعضهم بمصاب بعض . وليس لمجموعهم شرايين ولا أوردة يكون به جسما واحداً يمد بعض أعضائه بعضاً بالنماء ودفع الاذى

هذا ما رأيت عليه المسلمين وفيهم من النابغين ما ليس في القبط . ليس عندهم قضاة كقضاتنا . ولا محامون كمحامينا . ولا اداريون كادارينا . ولا أطباء كاطبائنا ولا كتاب ككتابنا ولا شعراء كشعرائنا . أعني ان النابغين فينا أكثر وارقى من النابغين فيهم، ولكنهم أرقى منا في الحياة الملية، والمقومات القومية، التي يكون بها أفراد الشعب كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وكالجسم الواحد اذا اشتكى له عضو تداعى له سائر البدن بالحمى والسهر ، كما وردت الأحاديث في وصف المؤمنين ، وقد فقد المسلمون قوة هذه الصفات التي جعلها الله سر دينهم وآية ايمانهم فلم يغن عنهم النابغون شيأ

هذا التفاوت بين شعبين يشارك أحدهما الآخر في جميع مرافق الحياة محذور عواقبه ، ولا تؤمن مغبته ، احدهما قوي بالاتحاد والتكافل، والآخر قوي بالكثرة ضعيف بالتخاذل ، دأب المتحدين الطمع في سلب مرافق المتخاذلين ، وبذلك ساد بعض الشعوب على بعض ،وكثيراً ما كانت الفئة القليلة،هي التي تسود الفئة الكثيرة ، والطامع قد يوغل في حقوق الغافل بغير رفق ، والعنف في الايغال قد يفضي الى العنف في الدفاع ، فيكون من ذلك مالا خير فيه للبلاد ، فاحببت منذ سنين أن أنبه المسلمين الى ما تصان به حقوقهم ، مع حفظ المودة بينهم وبين من يعيش معهم ، فكتبت في ذلك كثيرا ، ولكن المسلمين كانوا في شغل عن ذلك ، فيقل فيهم من قرأ ما كتبت ويقل فيمن قرأ من فهم ، ويقل فيمن فهم من اعتبر ، ويقل فيمن اعتبر من حدث غيره بما أصاب من العبرة . وهكذا شأن الغافلين المغرورين ينتبهون بالحوادث لا بالاحاديث

اني مؤمن والمؤمن لا ييأس من روح الله ، ولا يقنط من رحمة ربه،ولو يئست من حياة المسلمين لما رأيت شيئا من الخطر على البلاد في استمرار غفلتهم ، الى أن تصير وظائف الحكومة وثروة البلاد في غير أيديهم ، سواء أوغلت القبط في ذلك برفق أو بعنف ، فان الامراض التي تموت بها الامم تكون كداء السكتة يذهب بحياة المرء وهو لا يشعر بأنه يموت . ولكنني أعتقد ان في مسلمي مصر حياة ضعيفة لم تصل الى درجة التكافل والتضامن ، وان الخير في تقويتها بالدعوة الى حفظ المصالح ، لا بالدعوة الى دفاع المهاجم ، وان هذا لا يكون الا قبل أن يغلبوا على مصالحهم، ويروا أنفسهم مسخرين لمن كانوا دونهم ، يومئذ يخشى أن لا يروا في أيديهم الاسلاح الكثرة فيستعملونه للضرورة فيما يضر البلاد من الاعتصابات والفتن ، فتلافي ما يخشى في المستقبل منذ الآن ، هو الذي يحملنا على هذا البيان .

ما رأيت استحساناً عاماً لشيء نشرفي الجرائد بعد رد الاستاذ الامام على هانوتو

كاستحسان ما كتبته في هذه الايام من المقابلة بين المسلمين والقبط . يذكر لي ذلك كل من أراه . وكتب الي والى المؤيد غير واحد يشكرون لي ذلك ويطلبون المزيد منه ، أذكر هذا تمهيداً لقول بعض هؤلاء الحامدين الشاكرين : لماذا لم تنبهنا من غفلتنا بمثل هذه المقالات قبل اليوم ؟ ولهؤلاء أقول انني قد فعلت وقلما قررت حقيقة في هذه الايام الا وقد بينتها من قبل في المنار أو في بعض الجرائد اليومية . ولكن المسلمين كانوا في غمرة ساهين ، لا يعنون بما يكتب ولا يحفلون به الا مايكون عند الحوادث المؤلمة ، والصيحات المزعجة ، ثم لا يلبثون أن ينسوا ويعودوا الى سابق لهوهم وسهوهم ، حتى خشيت أن نكون كما قال شاعرنا من قبل في مثله الذي يشبهنا فيه بالغنم الراعية تظل غافلة منهادية في رعيها حتى اذا ما سمعت نبأة صائح ترتاع وترفع رؤوسها تاركة الارتعاه فاذا سكت الصائح عادت الى سابق شأنها أعني بهذا قول ابن دريد في مقصورته

نحن ولا كفران لله كما　　قد قيل في السارب اخلى فارتمى
اذا أحس نبأة ريع وان　　تطامنت عنه تمادى ولها

صاحت القبط منذ ثلاث سنين مثل صيحتهم في هذه السنة فكتبت مقالة في المنار عنوانها (المسلمون والقبط) كان لها باعتدال الرأي والادب في العبارة أحسن الوقع فنقلها بعض أصحاب الجرائد اليومية ولخصها بعض آخر ، فلم تلبث القبط أن سكتت صيحتها ، وسكنت في الظاهر دون الباطن ثورتها ، فنسي المسلمون ما كان ، حتى تجددت الصيحة في هذا العام ، بأقوى وادوم مما كان في سابق الاعوام

افتتحت تلك المقالة بهذه الجملة :

« سبق لنا قول في هاتين الطائفتين بمصر بينا فيه أن المسلمين من حيث هم أفراد أرقى من القبط في كل علم ، وأن القبط من حيث الاجتماع والتعاضد الملي أرقى من المسلمين ، فلهم مجالس ملية وجمعيات وجرائد دينية تبحث دائما في مصالحهم العامة من حيث هم قبط ، وهم يتعاونون ويتحدون في المصالح . وهذا ماحمدتهم وأحمدهم عليه وأتمنى لو يوفق المسلمون لمثله ، وان كنت أعلم أنه لو أنشأ المسلمون جمعية للرابطة الاسلامية كجمعية الرابطة المسيحية لما وجدوا في القبط مثل احمد بك زكي يقوم فيها خطيباً ويجعل عنوان خطابته « مصريون قبل كل شيء » بل يخشى ان يقوموا كما تقوم أوربة ويقول الجميع ان المسلمين في مصر يحيون التعصب الاسلامي والجامعة الاسلامية ويدعون الى ارتباط بعضهم ببعض لمقاومة النصارى في مصر بل في جميع الارض »

ثم بينت نسبة القبط الى المسلمين في العدد وفي أعمال الحكومة وأنهم أكثر فيها من

المسلمين ، وهم يدعون على ذلك أنهم مظلومون مهضومون ، ويطلبون لانفسهم سائر أعمال الحكومة التي في أيدي المسلمين ، وأنهم يسمون أنفسهم أهل البلاد ، ويُدلون ويفخرون على المسلمين بالانتساب الى آل فرعون ذي الاوتاد ، الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد ، ويجهرون بأن المسلم فيها أجنبي محتل ، وأتاوي معتد ، وينكرون أن يكون للمسلمين فيها حق من حيث هم مسلمون فاتحون ، على ادعائهم الحقوق فيها من حيث هم قبط مسيحيون ، وبينت فيها مواثبتهم للمسلمين من أضعف جانب يرونه فيهم ، وهو تهييج الانكليز وسائر الاوربيين عليهم بتهمة التعصب الاسلامي ، وكون هذه المواثبة قد تفضي الى ندم المسلمين على ما قاموا به من دعوة الوطنية واعتقاد أنها كانت خساراً عليهم وربحاً وفوزاً للقبط ، وأنهم اذا خسروا مودة المسلمين فلا يمكن أن يجدوا عوضاً خيراً منها فانهم لا يقدرون على استغلال أرضهم بعد ذلك

وبينت هنالك أن القبط لا يمتازون على غيرهم من نصارى المصريين ويهودهم وانما ميزهم المسلمون عناية بهم ، وبحثت في دين الحكومة الرسمي وذكرت مساعدة بعض رجال الدين من الانكليز لهم ، وأن المساواة التي يطلبونها هي امتياز على المسلمين من وجه آخر

نصحت للقبط في تلك المقالة نصيحة لو عقلوها وعملوا بها ، لما وقعوا في السيئة التي ندموا الآن أن اجترحوها ، وقد سبني في هذه الايام كتابهم في جرائدهم ولو عقلوا قولي لاستبدلوا الثناء بالهجاء ، فقد بينت لهم الآن كما بينت لهم من قبل ان المسلمين يغلب عليهم النسيان والتواكل ، وانه لا شيء يحول دون سلب القبط منهم كل ما في أيديهم الا هذه الجمعية القبطية والمسيحية ، التي تدفعهم بالرغم منهم لمقابلتها بالجامعة الاسلامية ، وهذا نص نصيحتي لهم منذ ثلاث سنين :

« فالرأي عندي للقبط ان لا يغتروا بترجيع بعض الجرائد الافرنجية لاصواتهم في الشكوى من المسلمين والقول بتعصبهم ولا من سرور بعض الانكليز به — ان كان ماقيل حقاً — فانهم مهما أصابوا من تضييق في مشاقة المسلمين فهو لا يكون خلقاً صالحاً لمودتهم فيما أرى . فأنصح لهم ان يتوبوا مما فعلوا ويعتذروا عنه ويعودوا الى سابق شأنهم ، أو الى خير منه ان استطاعوا . والمسلمون تغلب عليهم سلامة القلب فلا يلبثون ان يغفروا لهم ، وينسوا ما كان منهم ، ففي حديث أبي هريرة عند ابي داود والترمذي « المؤمن غر كريم » أي ليس بذي نكر ولا مكر ولا خداع . ولولا أني أحب الوفاق لما نصحت لهم بهذا فانني أعلم ان هذه المشاقة لا تزيد المسلمين

الا قوة في رابطتهم الاسلامية التي أدعو اليها ، وحفظا لحقوقهم التي اغار عليها ، ولكنني أفضل أن يكون تنبيهي لهم بغير هذا :

« احب ان يعتصموا بحبل الله جميعا ولا يتفرقوا ، وان يكونوا مع ذلك على وفاق ووئام مع من يعيش معهم ، وانصح للمسلمين ان لا يكتبوا شيئاً في الرد على القبط ، ولو لم يكتبوا في الماضي ما كتبوا لكان خيرا لهم واحسن اطفاء لتلك الفتنة وخذلانا لموقظيها . ولكن لا بأس ببيان عدد الموظفين منهم في كل مديرية ، وذكر الوقائع في تعصب بعضهم لبعض ، وتعاونهم المالي المحض ، من باب بيان الحقيقة والاعتبار بها ، بشرط أن يتحرى الصحيح ، ولا تمزج الرواية بشيء من التأنيب والتجريح ، فضلا عن الهجر والتقبيح »

لم تعمل القبط بهذه النصيحة لاعتقادها أن المسلمين قد قضي عليهم ، وانهم أمسوا مشلولين لا حراك بهم ، وزادها غرورا ان رأت المسلمين نسوا تلك الغارة الشعواء ولم يأخذوا حذرهم من مثلها ، ولا سمعوا نصيحتي باحصاء الموظفين ، لبيان أن القبط غابنون غير مغبونين ، فهاهم أولاء قد استدركوا في هذه المرة ما فاتهم في الغابرة ، فكانت كرة القبط كرة خاسرة

انني على تنبيهي للمسلمين وحرصي على حفظ مصالحهم ومرافقهم ورغبتي في ترقيتهم ، أجري على ما تعودت من المحافظة على مودة كل من يعيش معهم ، ويشاركهم في أوطانهم ، ولهذا قلت انني أحب نصحهم بغير هذه الوسيلة ولذلك أشرت عند الحركة الاولى الى ما يسكنها ، وقد سكنت وابت القبط الا أن تعود الى تحريكها ، وثبت لنا ان المسلمين لا ينتبهون الا بمثل هذه الصيحات المنكرة في وجوههم

نبهت قبل هذا على النسبة بين المسلمين والقبط في مصر وبينهم وبين غيرهم في الاقطار الاخرى بمقالات اجتماعية شخصت الحال تشخيصاً وذكرت بما يجب تذكيراً . وانى للغافل الذكرى ؟ كتبت في الجزء الاول من مجلد المنار الثامن الذي صدر في المحرم سنة ١٣٢٣ (مارس سنة ١٩٠٥) مقالا عنوانه (حياة الامم وموتها) عرفت فيه حياة الامة بانها أثر روح يسري في أفرادها فيشعرهم بان مكان كل واحد منهم من مجموع الامة مكان أحد أعضائه من جسده فهو يلاحظ في كل عمل منفعة نفسه ومنفعة امته معاً كما ان عمل كل عضو في البدن يكون سبب حفظ حياته من حيث هو سبب لحفظ حياة البدن كله » وقارنت بين حياة الافراد وحياة الامم وبين حياة الاجسام وحياة النفوس وضربت المثل لامة تموت بالوارث المسرف ، ولامة تحيا بالتاجر المقتصد ،

ذلك ينقص ماله الكثير كل يوم، وهذا يزداد ماله القليل كل يوم . وأول ما يخطر في بال المصري في هذا المقام ورثة شريف باشا واجراؤهم وخدمهم من القبط، أولئك أضاعوا ثروتهم الواسعة فصاروا فقراء، وهؤلاء امتصوا تلك الثروة فصاروا أغنياء

قلت في تلك المقالة « معرفة شؤون الامم والشعوب ، أخفى على الاكثرين من معرفة حال الافراد والبيوت ، فكم من جاهل يفضل أمة على أخرى لانها أصح ديناً وأعدل شريعة ، أو لانها أشرف أرومة، وأعرق في المجد جرثومة ، أو لان تراثها من سلفها أكثر ، ومزاياها الجنسية اشهر ، أو لانها أكثر عدداً ومدداً ، وأعز عشيرة ونفراً ، واذا صح ان يكون هذا كله أو بعضه للأمة التي تموت زمناً من الازمان . فانه لا يبقى الا ريثما تتصل بها أمة حية ، فترى هذه تمتص جميع مزايا تلك ومقوماتها الحيوية ، وتلك تحمل آفات هذه وعللها البشرية ، حتى تكون احداهما في عليين ، والاخرى في أسفل سافلين

« يسهل على القارئ في الشرق القريب أن ينظر فيما بين يديه من الشعوب التي تضمها جنسية سياسية أو لغوية ، وتفصل بينها روابط نسبية أو ملية ، فانه يرى شعبين يمتاز أحدهما بكثرة العدد وكثرة المال ، وقوة الحكم وقوة العلم ، ثم يجد نفسه تفضل قليل المزايا منهما على كثيرها . لانه يرى الشعب الكثير المزايا يتمزق ويتفرق فتذهب مزاياه بذهاب الاعوام ، والشعب القليل المزايا ينمو ويسمو ويجتمع ويتألف فيعز ويشرف باقبال الايام، يرى الشعب الكبير يتخاذل فيتضاءل ، والشعب الصغير يتلاءم ويتعاظم ، وما ذلك الا أن في أحدهما نسمة حياة تدفع عنه الاعراض الضارة بالشعوب فيقوى ويزكو، وتغذيه كل يوم بغذاء جديد فينمو ويسمو ؛ وليس في الآخر شيء من هذه الحياة فهو كجسم العاشق يذوب ويضمحل ، ويحقر ويذل »

ثم بلد مقارنة أخرى بين شعبين يحيي الكبير منهما ويموت الصغير فندت وأي من يجعل للصغر والكبر دخلا في الحياة والاتحاد بما نصه :

« لا يغرنك ما ترى من آيات الحياة في امة تقطعت روابطها، وانفصمت عروة الثقة بين أفرادها ، وبغض اليها النظام ، وفقدت التلاحم والالتئام ، وان كان ما تراه أخلاقا كريمة ، ومعارف صحيحة ، وثروة واسعة ، وسلطة نافذة ، مع العلم بأن هذه الاشياء كلها هي آثار الحياة توجد بوجودها وتذهب لذهابها ، فقد يكون ذلك من بقايا ارث قديم ، يعبث به الفساد الحديث ، الا أن ترى العلم والاخلاق تقرب البعيد، وتجمع الشتيت، وتزيد في الثقة بين الناس ، وتدعو الى التعاون على البر والاحسان ، وترى الثروة

تجمع مع ملاحظة مصلحة الامة وينفق جزء منها على المنافع العامة » الخ

وقد كتبت في تلك السنة (١٣٢٣) مقالة أخرى عنوانها « المسلمون والقبط أو — آية الموت وآية الحياة » كان سببها ما كتبه المؤيد وكتبته جريدة الوطن في مسألة « التعليم الديني والحكومة » وما طلبه القبط من مساواتهم بالمسلمين فيما يشترط في اعفاء حفاظ القرآن من خدمة العسكرية . وذكرت في هامشها أنني « طالما عزمت على كتابة مقالات في المقابلة بين مسلمي مصر وقبطها وبين المسلمين والنصارى عامة ثم أرجأتها » وسبب الارجاء انتظار الفرص التي تنبه الاذهان الى ما يكتب والنفوس الى العبرة به

وجملة القول اننا نرى ان القبط يطلبون ما ليس بحق شرعي لهم وانما يطلبونه بقوة الاتحاد الملي وضعف المسلمين وتخاذلهم ونرى المسلمين تضيع حقوقهم الشرعية وهم غافلون . ونرى ان القبط قد أيقظوا المسلمين ونبهوهم قبل الوصول الى حد اليأس الذي تخشى عاقبته . ونرى ان بيان حق كل ذي حق ومكان كل من الآخر هو الذي يمكن أن يبنى عليه الصلح الثابت ، والوفاق الدائم ، وسنبين في النبذة التالية مكان كل من هذه الحكومة وهل هي حكومة اسلامية أم لا

***

النبذة السابعة

هل الحكومة المصرية اسلامية أم لا

انني بحثت وأبحث في مقالي هذا عن الحقيقة الكائنة لا عن الرغبة التي أحب أن تكون ، والعاقل هو الذي يحب جلاء الحقائق ، وبيان الواقع الكائن ، ويستفيد منه عبرة ، ويزداد بصيرة ، فيسلك الى مقاصده في طريق النور لا طريق الظلمة . ولو تدبرت القبط هذا لكافأتني جرائدها بالحمد والشكر ، لا بما جاءت به من السب والهجر .

من هذه الحقائق التي أبينها في هذه النبذة وقد أشرت اليها من قبل ان المسلمين يعدون أنفسهم أمة جنسيتها الاسلام وأنه يجب أن يكون لهم حكومة اسلامية . وان جنسيتهم هذه واسعة عادلة لا تفرق في العدل بين المسلم وغيره . وذات سماحة وحرية لا تمنع أهلها أن يشاركوا غيرهم فيها وفي جميع مرافق الحياة . كما ولوا القبط في القديم والحديث الى هذا اليوم أكثر أعمالهم في الحكومة وكذا في عقارهم وأرضهم وأوقافهم

بالغوا في التسامح وأسرفوا في الجود والسماحة في أيام قوتهم وقنعوا من السلطة باسم السيادة وكونهم هم المعطين وغيرهم هو المعطى حتى اذا ماحل بهم الضعف صار ماأعطوه للاجانب حقوقاً وامتيازات يستعلون بها عليهم ويزيدون فيها بقوتهم ماشاؤا ، ويفسرونها كما أرادوا . وقد كان هذا بتكافل الدول القوية واتحادها بالتدريج فأذاقوا المسلمين مرارة تقريطهم لقمة بعد لقمة ، وجرعة في إثر جرعة ، فتجرعوه كارهين مكرهين ، كما بذلوه من قبل راضين مرضيين .

أرادت القبط أن تقيس نفسها على الدول الكبرى فتسمي ما سمح لها به المسلمون حقوقاً واجبة وتزيد فيها ماتشاء ، فأنشأت تطلب لنفسها الزيادة فياسمته حقوقاً وازالة مابقي للمسلمين من امتياز اسلامي بمشاركتها لهم فيه . وقد كان هذا مما يسيغه المسلمون المساكين جرعة بعد جرعة كما أساغوا تلك الامتيازات مع الاعتراف لهم بأن الحكومة حكومتهم . ولكن أبت جرائد القبط ومؤتمر القبط الا أن تنازع المسلمين اسم السلطة كما نازعتهم معناها . وانها لاحدى الكبر التي لم يئن للمسلمين في مصر أن يسيغوها مختارين

مضت سنة الله في أهل السيادة الذين يضيعون سيادتهم بسوء تصرفهم أن يكون آخر مايهتمون به الأسماء والالقاب والرسوم والشارات الظاهرة كما هو معروف في تاريخ الشرق والغرب

دع ذكر ملوك الطوائف وأمراء المسلمين من الاندلس الى فارس والهند واعتبر بحال أمراء جبل لبنان من مسلمي الشيعة تجدهم في آخر عهدهم ، بعد أن ملكت النصارى حتى من خدمهم واجرائهم معظم ما كان لهم ، كانوا يقنعون من الامتياز باللقب ولبس الاحذية الحمر التي كانت خاصة بهم من دون الفلاحين حتى كان الشيخ منهم يكون له الحقل أو الكرم الواحد من الارض والعقار فيهدي اليه الفلاح النصراني حذاء أحمر (جزمة) ويظهر له انه جيء به فلم يرد أن يلبسه تأدباً معه ، فيهبه الشيخ اياه وربما كان آخر مايملكه

أصابت القبط موضع التأثير من قلوب المسلمين بقولها ان حكومة مصر ليست اسلامية (أو حركت الوتر الحساس من نفوسهم كما تقول الافرنج) وقد حمل هذه الدعوى خطيبهم في مؤتمر أسيوط قضية مسلمة فحمد الله وحمد نية المصريين ان كان الذين يقولون منهم ان هذا البلد اسلامي لايجاوزون عدد الاصابع وهذا ألطف ماقالوه في هذا الباب لانهم قالوه بعد العلم بأن المسلمين تألموا من مؤتمرهم وعزموا على انشاء مؤتمر اسلامي

نعم ان المسلمين مفتونون بالحكومة في كل مكان ، وهذا هو الواقع وان أضر بهم في هذا الزمان ، فانه صرفهم عن ترقية أنفسهم ، والاعتماد على استعدادهم ومواهبهم ، ألم تروا ان المسلمين بمصر قد اهملوا امر الامة وتركوها للمرابين والمقامرين والقوادين والخمارين يغتالون ثروتها ، ويجنون على دينها وعرضها وصحتها ، وجعل اصحاب الجرائد وغيرهم من المتصدين والمتصدرين للامور العامة يجاهدون الحكومة والاحتلال المسيطر عليها ، وقد تركت للامة حريتها تعمل ما تشاء فلم تعمل شيئاً يذكر ، ولماذا ؟ لان الزعماء شغلوها بفتنة السلطة عن نفسها حتى انهم كانوا يعدون من يحب ان يكون همّ الامة الاكبر في ترقية نفسها بالتعليم والتربية والثروة خائنا للامة خادما للاحتلال ، لان الواجب عندهم قبل كل شيء هو ازالة الاحتلال ثم اصلاح الامة بالحكومة المستقلة

مقاومة الاحتلال بالسهل الممكن وهو الكلام طبيعي لا اعتراض عليه ، والانتقاد على الحكومة — والحرية واسعة — طبيعي لا بد منه ، وانما المنتقد هو جعل المسلمين همهم كله في ذلك ، واهمالهم أمر تربية الامة وتكوينها ، وقد سلم من هذا الانتقاد القبط فكوّنوا أنفسهم حتى صاروا على قلتهم يقولون « الامة القبطية » بحق ، وانما أخطؤا أخيرا بما نازعوا المسلمين في شكل الحكومة وتصريحهم بأنها غير اسلامية

الحق الواقع ان جمهور المسلمين يرون ان حكومة مصر اسلامية وشعورهم في هذا رقيق جدا يجرحه القول اللطيف ولهذا كان لورد كرومر وهو ذلك الشجاع الجبار يتحاشى ان يلمس أي شيء له علاقة بالدين ، وهذه هي سنة السياسة عند الفحول المقررين من أهلها ، وعليها جرى الكثيرون في ابقاء بعض امراء المسلمين في البلاد التي ملك الافرنج أمرها كله كسلاطين جزائر جاوه وباي تونس وبعض النواب في الهند لتتوهم العامة أن حكامها من أبناء دينها

هذا هو شعور الجماهير واني لأعرف من المسلمين من يرى أن الخير للمسلمين أن تعلن هذه الحكومة رسميا انها غير اسلامية وان تترك للمسلمين جميع شؤونهم الملية يديرونها بأنفسهم كما تركت مثل ذلك للقبط وغيرهم كالمحاكم الشرعية والاوقاف والمعاهد الدينية كلها

يرى هؤلاء ان هذا الاعلان اذا حصل يذهب بغرور المسلمين بهذه الحكومة التي لاحظ لهم من عنايتها ، ويبدلهم من بعد اتكالهم استقلالا واعتمادا على عملهم ، ومن بعد كسلهم نشاطا واقداما على ترقية أنفسهم ، حتى اذا ما ارتقوا وتكونوا توحيد

التربية الملية والتعليم الحر صاروا أمة واحدة تكون حكومتهم نائبة للرأي العام المستقل في الامة لان هذه هي عاقبة جميع الامم المرتقية

تقول القبط ان هذه الحكومة مصرية لا اسلامية وحاكمها العام حاكم مدني لا حاكم ديني . وقد يحتج من يرى هذا بأنها تشرع مالم يشرعه الاسلام من القوانين وتبيح مالم يبحه من الفسق . وقد يرد عليهم الجمهور بأن خطأ الحكومة في هذه المسائل خطأ الافراد فكما يخالف أفراد المسلمين هداية دينهم فيزنون ويسكرون، تخالف حكومتهم هذه الهداية فلا تمنع الزنا والسكر . وحكم الفقه أن المعصية لا تخرج صاحبها من الاسلام الا اذا جحد تحريمها وكان مجمعاً عليه معلوما من الدين بالضرورة . وكما تكون الامة يكون أولياء أمورها لانهم منها . وقد عرض لهذه الحكومة من سلطة الاجانب ماجعلها غير مختارة ولا مستقلة في كل شيء اسلامي لكن السلطة الاجنبية لم تمح منها كل ماهو اسلامي

اذا كانت هذه الحكومة غير اسلامية فلماذا تستولي على مال من يموت من المسلمين عن غير وارث ، ولا تستولي على مال من لا وارث له من القبط وغيرهم من النصارى واليهود

اذا كانت هذه الحكومة غير اسلامية فلماذا تولي هي القضاء الشرعي الاسلامي في الاحكام الشخصية وتدع مثل ذلك لغير المسلمين يحكمون فيه بما يعتقدون، ان القاضي الاكبر الذي يتولى السلطة الشرعية العليا من قبل خليفة المسلمين يحكم بين الناس بمذهب الخليفة والامير وكذلك سائر القضاة . ولا يحكم أحد منهم بين المتخاصمين بأحكام المذهب الذي يقلدونه بل جعلوا قضاء مصر حنفياً محضاً كالقضاء في بلاد الترك الحنفية ، واهل مصر شافعية ومالكية الا القليل

اذا كانت هذه الحكومة غير اسلامية فلماذا لا تترك للمسلمين أوقافهم كما تركت للقبط وغيرهم أوقافهم ، فاذا كان الخديو كما تقول القبط حاكما مدنيا فقط ونسبة المسلمين والقبط اليه من حيث هو حاكم واحدة فهل يرضون بكل مايتفرع على هذا الاصل ويجعلون له الحق أن يعطي من أوقاف القبط للمنافع المشتركة (كالجامعة المصرية) كما يعطي من أوقاف المسلمين

اذا كانت هذه الحكومة غير اسلامية فلماذا تضع هي القوانين للمعاهد الدينية التعليمية كالازهر وغيره من جوامع العلم الديني وتولي هي المشايخ عليه ومشايخ المذاهب وترفع بعضهم في الرتب العلمية الدينية على بعض . ولماذا تولي ائمة الصلاة وخطباء

الجهة ولا ترى لها مثل هذا الحق في معاهد الديانة النصرانية من الاديار والكنائس وقسوسها ورهبانها وسائر رجال دينها وانما تكتفي ببعض الرسوم الدالة على ان هذه الديانة من الديانات التي أقرتها الحكومة في بلادها ولها عليها حق الحماية وحفظ الحرية الدينية . وليس لكل أهل دين هذا الحق في كل حكومة فالبابية ليس لهم حقوق دينية في بلاد الدولة العثمانية كالنصارى مثلا

اذا كانت هذه الحكومة غير اسلامية فلماذا تترك العمل في الاعياد الدينية الاسلامية وتحتفل بها احتفالا رسمياً كما تحتفل بالمولد النبوي الشريف دون أعياد القبط وغيرهم ودون مولد سيدنا عيسى عليه السلام ومثل ذلك الاحتفال بمحمل الحج وكسوة الكعبة المعظمة

لست أعني بهذه الامثلة والشواهد انها كلها من الفرائض أو السنن في أصل الاسلام ، أو من الاحكام التي فرضها الدين على الحكام ، فالصحابة والتابعون والائمة المجتهدون لم يحتفلوا بذكرى المولد ولا المعراج كما تحتفل الحكومات الاسلامية الآن وإنما أعني أن هذه الخصائص من آثار كون الحكومة اسلامية

تريد القبط أن تمحو هذه الخصائص ومن وسائلها الى ذلك طلب ترك العمل في يوم الاحد وطلب جعل أموال الحكومة المصرية شرعاً بينهم وبين المسلمين لاينفق شيء منها في مصلحة اسلامية ، الا وينفق مثله في مصلحة قبطية ، وهذا أصل عام يتفرع منه اذا قبل محو جميع خصائص المسلمين في هذه الحكومة . وتحتج القبط على حقيقة هذا الطلب بأن هذه الحكومة مصرية لا اسلامية فهذا هو الاصل عندها فاذا قبلته الحكومة ترتب عليه ماطلبوا أو أكثر مما طلبوا من الفروع

واذا محصنا المسألة وبينا حقيقتها ترى ان المطلوب هو اخراج هذه الحكومة عن كونها اسلامية بازالة كل اختصاص للمسلمين فيها ولكن أبوا أن يعترفوا بهذا الاصل ويطلبوا هدمه ورجحوا أن يهدم بهدم ما بني عليه . وهذا من الدهاء والحكمة لأن طلب ابطال الفروع أخف على النفوس من طلب ابطال الاصول فانه من قبيل الدعوى بالدليل ، ولان من اعترف بالاصل لزمه الاعتراف بالفروع . فما جروا عليه هو الاقوى والانفع لهم وهو أشد على المسلمين في باطنه وحقيقته ، وأخف في ظاهره وصورته .

ان الدولة العثمانية أمّ الحكومة المصرية واقفة أمام مثل هذه المسألة في بلادها . فقد قام النصارى بعد الدستور يطالبون بنحو ما تطالب به القبط . ولكنهم لايزالون

يخفون أكثر مما يظهرون، وليس موضوع كلامي أبداه رأيي أو ميلي في تخطئة هذا أو ذاك ولا تصويبه وانما رأيت الامر غمة على المسلمين والنصارى كافة وما رأيت أحداً تجرأ على بيان الواقع فأحببت ان أبينه كما هو لا كما يجب أن يكون

الواقع ان الحكومة العثمانية حكومة اسلامية قبل الدستور وبعده وان الحكومة المصرية مثلها وتابعة لها في كونها اسلامية وانما تختلف في شيء واحد وهو انها مستقلة في ادارتها الداخلية بعهد (فرمان) من السلاطين. وان الاحتلال الاجنبي مسيطر عليها.

وقد صرح القانون الاساسي للدولة بأن دينها الرسمي هو الاسلام وأن سلطانها هو خليفة المسلمين . والدين في حكومتها أظهر منه في الحكومة المصرية التي هي تحت سيادتها . فان شيخ الاسلام هنالك هو العضو الاول في مجلس النظار وباب المشيخة الاسلامية من أكبر نظارتها . واذا تناقش مجلس الامة من المبعوثين أو الاعيان في مسألة وقال أحد منهم انها مخالفة للدين لا يستطيع أحد أن يقول لا ضرر في ذلك بل يدفعون ذلك بعدم التسليم له فلو كان جميع المبعوثين من المسلمين عالمين بالشرع الاسلامي وأرادوا أن يطبقوا جميع القوانين على أحكامه لفعلوا بلا معارض

هذا هو الواقع هنا وهناك وهو يثقل على القبط وسائر النصارى وان كان أميلهم يأمرهم أن يخضعوا لكل حاكم، وان يعطوا ما ليقصر لقيصر، وما لله لله ، ويفخرون بأن دينهم فصل بذلك بين الدين والحكومة ، ولكنه لا يثقل على اليهود الجامع كتابهم بين الدين والحكومة ، بل يكتفي هؤلاء من الحكومة بأن تمنحهم الحرية في دينهم وكسبهم ، وقد وجدوا من هذه الحرية في بلاد المسلمين أيام قوتهم وأيام ضعفهم ما لم يجدوه في بلاد أخرى في الحالتين

النصارى أحرص الناس على السلطة والحكم وللتربية الافرنجية في نفوسهم تأثير عظيم في ذلك فهم لا يرضون من الحكومتين العثمانية والمصرية تمام الرضى الا بالانسلاخ التام من الاسلامية ، ولكن هذا الانسلاخ مما لا يستطاع الا بالتدريج البطيء في الزمن الطويل، فان الاشخاص والاقوام والحكومات تتكون كطبقات الارض بفعل الزمن الطويل وما كان كذلك لا يمكن تغييره دفعة واحدة كما قلنا ولهذا بينت من قبل أن القبط قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة ومنعهم بعضهم للعرب أن يهتدوا فيه بحكمة شاعرهم التي سيرها مثلا وهي .

قد يدرك المتأني بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزلل

قلت هذا لأن ما يطلبونه هم واخوانهم من سلخ الحكومتين من الاسلامية لا يمكن

أن يحصل الا بالتدريج وبموافقة المسلمين لهم عليه . وقد وجد من المسلمين الجغرافيين (أي الذين يعدون من المسلمين في احصاء الجغرافية وان لم يعرفوا ماهو الاسلام) من يرون هذا الرأي ، ويسعون هذا السعي ، بالدعوة الى حل الرابطة الاسلامية ، والاستعاضة عنها بالرابطة الوطنية أو الجنسية . وقد صار لاصحاب هذا الرأي أحزاب وزعماء يقودون المسلمين الى حيث يجهلون ، وترك رجال الدين زعامة الامة وقيادتها لهم وهم يعلمون ان منهم الملحد ومنهم الفاسق الذي يشرب الخمر ويزني ويلوط ، ومنهم الذي يحل الربا ، وأمثال هؤلاء الزعماء أحرص على سلخ الحكومة من الدين من النصارى لانه يتعذر عليهم أن يجمعوا بين شهواتهم وأهوائهم والزعامة في قومهم ، وبين الحكومة الاسلامية

لو صبرت القبط والنصارى في البلاد العثمانية لكفاهم هؤلاء المسلمون الجغرافيون لامر ، كما بيّنته من قبل ، ألم يروا أنه لا يوجد مشروع اسلامي الا ويكونون هم المقاومين له لانهم يخشون قوة الدين على زعامتهم ووطنيتهم ، وان كان من قوم لا أعناية لهم بالزعامة ، ولا يحبون أن يقربوا من نار السياسة ، ولكنهم اذ لم يصبروا ، يخشى أن يجيء الامر على ضد ما طلبوا .

يحسن ان يقنعوا الآن بمالهم في الحكومتين من الحرية الواسعة ، وجواز مشاركة المسلمين في أكثر أعمال الحكومة أو كل ما لا يختص بالدين منها ، والقبط أجدر بهذه القناعة من غيرهم لان اكثر أعمال الحكومة الخديوية في أيديهم وليتدبروا حال الحكومات الاوربية العريقة في الحكومة النيابية ، كيف لا تزال على ندرة المخالفين اشمولها في دينها تفضل مذهب الجمهور والحكومة على غيره ، حتى أن فرنسا وهي الجمهورية التي صرحت بأنه لا دين لحكومتها لا يمكن ان تجعل من اليهود المالكين على أزمة القوة المالية فيها قوادا للجيش ولا للاساطيل ولا رؤساء للجمهورية ، دع معاملتها لمسلمي الجزائر وتونس

ان لتصريح القبط وغيرهم بهذه المسألة عواقب تتوقع ولاسيما اذا أجيبوا اليها (منها) تنبيه غيرة المسلمين الغافلين الى وجوب اقامة حكومتهم لشريعتهم ، ولا يمكن للحكومة العاقلة أن تخالف رغبة الجمهور الاعظم من رعيتها الى رغبة النزر اليسير ولو فيما ترغب هي فيه

(ومنها) تصدي الدولة العلية للمداخلة في الامر باسم الخلافة والسيادة اذا أجابت الحكومة بعض المطالب تفريعا على الاصل الذي تقرره القبط وهو انها غير اسلامية .

وقد سمعنا هذه الايام صوت مجلس النبوتين في الاستانة يبحث عن القاضي الاكبر والقضاء في مصر ويطالب بالمحافظة على الشرع فيها وعهد الى شيخ الاسلام بالبحث عن ذلك وايضاح ما يقف عليه للمجلس وما نظن ان الحكومة الانكليزية تحب فتح هذا الباب في هذا الوقت

(ومنها) ان المسلمين في جميع الاقطار يعدون مصر باب الحرمين الشريفين ومعهد علوم الدين ، فاذا علموا ان حكومتها خرجت عن كونها اسلامية يألمون بالطبع وتفرج مسافة الخلف بينهم وبين النصارى وذلك لا يرضي به محب للانسانية .

(ومنها) ان الانكليز يحسبون لسخط رعاياهم المسلمين في الهند وغيرها حسابا اذا هم وافقوا القبط على ذلك جهرا ، والمسلمون أشد أهل الهند اخلاصا لهم في هذا الوقت

(ومنها) ان هذا يذهب بكل أمل المسلمين في هذه الحكومة فيكون علة لرجوع المسلمين الى استعدادهم الذاتي واعتمادهم على انفسهم ، وحينئذ يخشى ان تخسر القبط منهم اكثر مما تربح من الحكومة ، وان يعود الامر الى نصابه بقوة الاتحاد التي فقدها المسلمون باتكالهم على حكومتهم

(ومنها) ان القبط ترجح على المسلمين رجحاناً ظاهراً يخشى ان يترتب عليه مع تعصب بعضهم لبعض فتن كثيرة ، وهذا مما لا ترضي به حكومة في الدنيا ولا يعقل ان يرضي به الانكليز

وصفوة القول ان فتح باب هذه المسألة كان من الخطأ الذي يضر القبط دون المسلمين فانه أيقظ هؤلاء فاذا استمروا على يقظتهم كان فيه الخير العظيم لهم ، واذا عادوا الى غفلتهم كان ضرره على القبط تأخير مطالبهم ، وبعد ما كان قريباً منها عنهم

نعم ان القبط يستفيدون من هذه الحركة اكثر استعداد المسلمين ، فاذا فاز المؤتمر المصري اضطروا الى معاملة المسلمين معاملة جديدة ورضوا أن يكونوا منهم مكان الأخ الصغير من الاخ الكبير الذي يكون رئيس العشيرة أو بما دون ذلك ، واذا خاب المؤتمر بسعي المفرقين من المسلمين ، علموا ان السيادة في هذه البلاد ستكون لهم ولو بعد حين

وسيكون المؤتمر المصري موضع النبذة الثامنة من مقالنا هذا

* * *

النبذة الثامنة

المؤتمر المصري

ان بركات هذا المؤتمر قد سبقت وجوده فان القبط لما علموا بالعزم عليه اضطروا الى سلوك سبيل الادب في التعبير، وتنكب السبيل التي سار عليها كتابهم في الجرائد وهي سبيل الغيرة والتعبير، ولكنهم لم يرجعوا عن مقصد من مقاصدهم، وأهمها إنكار كون حكومة مصر إسلامية، وادعاء انهم أعلى كفاءة من المسلمين وأنهم أخذوا معظم وظائف الحكومة بحق الكفاءة ويطلبون ما يطلبون من سائرها بحق الكفاءة،

غرهم اتحادهم وتخاذل المسلمين وطعن بعض أفرادهم وأحزابهم ببعض، ولاسيما بالنابغين منهم في الحكومة، فادعوا ما هو بديهي البطلان في مسألة الكفاءة الشخصية، وما يكاد يكون حقاً ظاهراً في كفاءة العصبية الملية، لولا أن ابرى أولئك الاكفاء الفضلاء الى تأليف هذا المؤتمر الاسلامي المصري. وكل ما هو مصري فهو إسلامي اذا عرف المسلمون أنفسهم، وتعاونوا على القيام بمصالح قطرهم، لان غيرهم قليل فيكون بالضرورة مدغماً فيهم، ليس له وجود مدني خاص بدونهم، ولكن وجودهم المدني — وقد اجتمعوا وتعاونوا — لا يتوقف على وجود غيرهم،

لولا غرور القبط باتحادهم، وتخاذل المسلمين وتفرقهم، لما طلبوا الرياسة الادارية بدعوى الكفاءة. وكيف تعرف كفاءة المرء في أمر ليس له فيه عمل، ولم تسبق له فيه تجربة، ومن ذا الذي يشهد لهم بهذه الكفاءة وشهادة المرء لنفسه باطلة، ولم يشهد بها المسلمون ولا المحتلون وهم أبناء دينهم، فاذا كانوا يعتدون بشهادة أوليائه الامور فليتركوا الامر اليهم، والا فليأتوا بشهدائهم ان كانوا صادقين

أما أنا فأقول ان هذا المؤتمر هو الذي يشهد لهم أو عليهم. ولا أعني بشهادته ما يأتي به خطباؤه من البينات والحجج فقط وإنما أعني شهادة الحال، دون شهادة المقال، فان لسان المقال قد يكذب وقد يختلب لب السامع بالشعريات المتخيلة، فيبرزها في صور الحقائق المقررة، كما فعل خطباء القبط في مؤتمرهم. وأما لسان الحال فهو الصدوق الذي لا يعرف الكذب، والحق الذي لا يأتيه الباطل، فنجاح المؤتمر المصري بالثبات

والنظام والعدل والانصاف والاتحاد والتعاون هو الذي يشهد للمسلمين على القبط ، وشهادته لا تكون بذلك الا حقاً ، لان تلك الصفات هي روح الحق

أبطأ مسلمو مصر في هذا المؤتمر كما أبطأ اخوانهم مسلمو الهند في مثله من قبل سبق وثنيو الهند مسلميها في عقد المؤتمر السنوي والجمعية الملية ، والمسلمون هنالك أقل من الوثنيين عدداً ، وسبق قبط مصر مسلميها في انشاء المجلس الملي وفي عقد مؤتمر قبطي ، والمسلمون في مصر هم الاكثرون عددا ، فما هو سبب ذلك ، هنا وهنالك ،

كان المسلمون هم أصحاب العزة والسلطان الغالب في الهند كمصر ، فعاش الفريقان الزمن الطويل بعد دخول الاجانب في بلادهم ، مغرورين بسابق عزهم وسلطانهم ، ولم يشعروا بحاجتهم الى حياة اجتماعية جديدة في هذا العصر الجديد كما شعر الهندوس هناك والقبط هنا لعدم غرورهما ، وانما استيقظ مسلمو الهند قبل مسلمي مصر لان الغرور بالحكومة الاسلامية قد زال من نفوسهم من قبل وان أبقت لهم انكليزة بعض النواب (الامراء) كالتماثيل الاثرية أو المومياء في متاحف العاديات ، وبقي مسلمو مصر مغرورين متكلين على حكومتهم ، مشغولين بسلطة الاحتلال المسيطرة عليها ، حتى زلزلت القبط هذا الغرور باتحادها وتكافلها وفغر أفواهها لابتلاع الحكومة كلها ، كما أيقظ مسلمي الهند اتحاد الهندوس وتكافلهم وتقدمهم عليهم بعدان كانوا دونهم ، فليس لقلة المسلمين النسبية في الهند ولا لكثرتهم في مصر دخل في هذه المسألة الاجتماعية ، وانما هي فتنة السياسة ، والغرور بشكل الحكومة ، قد أذهلا الامة عن نفسها ، وصرفاها عن استعمال مواهبها ، حتى كادت تفقد نفسها ومواهبها

ان الامم الأوربية التي يجب ان نعتبر بحالها هي التي أصلحت حكوماتها ، ولم تكن حكوماتها هي التي اصلحتها ، فاذا ارتقت الامة ترتقي الحكومة بالضرورة ، وقد قال السيد الافغاني الحكيم : العاقل لا يُظلم ولا سيما اذا كان امة

يجب على زعماء الامم أن يوجهوها الى قواها الذاتية ، وثروتها الطبيعية ، وان ينموا هذه القوى والثروة ، حتى تكون مصدر سعادة الامة ، وان يحولوا دون افتتان العامة بالسياسة ، والاشتغال بامر الحكومة ، فان ذلك يشغلها عما تحسنه وتقدر عليه ، بما لا تحسنه ولا قبل لها به ، وقد ورد في الحديث الشريف « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » رواه الشيخان في صحيحيهما

يعني انه ينبغي للانسان أن يعمل ويشتغل بما يميل اليه استعداده فانه هو الذي يرجى ان يتقنه ، ومن حكمة الله في اختلاف الاستعداد ، أن يتقن مجموع البشر جميع

الاعمال ، فمسألة الحكومة والسياسة فتنة عظيمة في كل الشعوب ولا سيما في دور الانقلاب الاجتماعي والانقلاب السياسي

ان للامة حقوقا على العلماء والكتاب والاغنياء الذين يهتمون بالامور العامة ويتصدون لها . منها خدمة مصلحتها الدينية والادبية ، ومنها خدمة مصلحتها الاجتماعية ، ومنها خدمة مصلحتها الاقتصادية ، فاذا حصروا عملهم في السياسة أو جعلوه كله باسم السياسة ، أضاعوا عليها هذه المصالح والمنافع التي لا قوام لها ولا بقاء الا بها ، ولا سيما في مثل هذه البلاد التي ليس لها من أمر سياسة نفسها الا الكلام بقدر ما تسمح به حرية الحكومة . وإني اعتقد أن الامة لا ترتقي اذا كان همها كلها موجها الى شيء واحد وناهيكم اذا كان ذلك الشيء هو السياسة التي لا يشتغل بها في كل الامم الا القليلون ، ولا يحسنها ممن يشتغل بها الا الاقلون ،

أمرنا الكتاب العزيز أن نسير في الارض ونعتبر بأحوال الامم ، فاذا نحن بلونا أخبار الشعوب الغربية وسبرنا غورها رأينا فيهم نرى أنهم ما وصلوا الى ما وصلوا اليه من العزة والثروة ، الا باهتمام النابغين منهم بترقية الامة ، والاستعانة على ذلك بالجمعيات والشركات ، وتوزيع الاعمال بحيث يشتغل بكل نوع منها طائفة لا تشتغل بغيرها حتى تحسنها

اذا اختبرنا حالهم في التربية وخدمة الدين نظن انه لا هم لهم من الحياة غير دينهم ، ذلك بأن لهم جمعيات دينية كثيرة قد تبرعوا لها بالاموال ووقفوا لها الاوقاف حتى صارت تملك الملايين من الجنيهات ، وقد عمت التربية الدينية عندهم ثم فاضت طوفانها على جميع شعوب الارض فانشأوا فيها المدارس والملاجىء والمستشفيات ، وطفقوا يبثون فيها دينهم وينشرون كتبهم مترجمة بجميع اللغات ، وان الفقراء منهم ليساعدون هذه الجمعيات على قدر حالهم حتى ان منهم من يحرم نفسه من شرب الشاي أو من سكره أو من اللحم شهراً أو شهوراً أو سنة ويجعل ما كان ينفقه في ذلك للجمعيات الدينية كما يعلم ذلك من كتبهم وجرائدهم

اذكر مثالا صغيرا من ذلك وقع في هذه البلاد : كتب قسيس انكليزي يقيم في شين الكوم في جريدة دينية انه يريد ان يطوف القرى في الارياف للتبشير بالانجيل وانه يحتاج الى دراجة (بيسكلت) لذلك ولا يملكها . فما لبث ان امطرت عليه بلاده

الدراجات الحديدة حتى صار بيته مخزنا لها لا يكاد يسعها ، وتبع هذا من الدراهم والهدايا ما لا حاجة بنا الى عده

واذا دققنا النظر في اعمالهم المالية نظن انه لا هم لهم من الدنيا الا المال والاحتيال على جمعه وتصريف أمور العالم كله به وناهيكم بصنوعاتهم التي يعيش العالم كله بها ، ولا تكاد تقع عين أحدنا الا عليها

واذا بحثنا في العلوم والفنون كل منها على حدته فانه يسبق الى اذهاننا عند الوقوف على عنايتهم بكل علم وحده انهم لم يشتغلوا بغيره ولا يحفلون الا ببلوغ الغاية منه حتى انهم جعلوا لكل فرع من فروع العلم الواحد جمعيات خاصة لاجل اتقانه

فاذا أردنا الاعتبار بحالهم مع الاستضاءة بنور العقل فعلينا أن ننظر في حاجات أمتنا ومصالحها العامة ونختص بكل منها طائفة تشتغل بها دون غيرها لان اتقان العمل الذي هو سلم الترقي لا يكون الا بذلك

عندنا جمعيات خيرية وتعليمية ودينية ونقابات مالية وزراعية وشركات تجارية وصناعية وتألفت عندنا مجالس المديريات لاجل تعميم التعليم وهذه المصالح كلها لا تزال ضعيفة وقعها محصوراً في دائرة ضيقة ، فهي الآن كالاعضاء المتفرقة يجب اتصالها ليكون عمل كل منها متمما لعمل الآخر ، أو كالشرايين المنفصلة يجب اتصالها بالقلب لتستمد منه وتمده ، أو كالاسلاك البرقية التي يصل كل منها بين بلدين أو اكثر من المملكة ولا تتصل بالمركز العام الذي يصل بعضها ببعض ، وما دامت مصالحنا متفرقة على هذا النحو لا نكون أمة متحدة فيجب ان يكون لجميع مصالح الامة العامة سمط واحد تنتظم فيه حباتها ويزاد عليها حتى تكون عقداً كاملا ، يجب ان تتصل هذه الاعضاء العاملة فتكون جسما واحداً يعمل كل عضو منها عمله الخاص به لاجل منفعة سائر الاعضاء

فالسمط الذي نحتاج اليه لتكوين عقدنا الاجتماعي بل الدماغ او القلب الذي نحتاج اليه ليمد جميع اعضاء الامة بالحياة هو هذا المؤتمر

ما سرني شيء في مصر كما سرني تألف هذا المؤتمر وانما يتم السرور ان شاء الله تعالى بنجاحه ودوامه ، واني اقترح عليه ما يغلب على ظني ان غيري يقترحه والحق يزيد قيمته ويعلو شرفه بكثرة طلابه ، ولكن لا ينقص شرفه بقلتهم ، فان الحق كالجوهر الخالص ، شرفه ذاتي له وانما يعلو ويغلو بمعرفة الناس لهذا الشرف وتنافسهم فيه أي بأمر عارض غير ذاتي

كفاني قانون المؤتمر امر اقتراح سلبي لا بد منه ، ولا يرجى بقاء المؤتمر ونفعه الا به ، وهو عدم الاشتغال بالسياسة ، فالسياسة ما دخلت في شيء الا افسدته كما قال الاستاذ الامام ، فيجب ان تترك لنفسها ويفوض أمرها الى أحزابها ، وان يشتغل المؤتمر بما دونها من مصالح الامة فيجمع متفرقها ، ويكمل ناقصها ويوحد وجهتها ، ليكون عمل الكل موجها الى غاية واحدة

للمؤتمر عمل عارض موقت وأعمال دائمة مقصودة لذاتها ، فالعمل العارض الموقت هو تمحيص مطالب المؤتمر القبطي وبيان حقه من باطله

يقول الله تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن) الآية . ولا أحسن من بيان الوقائع وإثبات الحق بالاحصاء الصحيح ، وبذلك يثبت المؤتمر أنهم طلبوا من أعمال الحكومة ما لو أعطوه لا ضحت الحكومة قبطية خالصة ، ويسهل على المؤتمر ان يثبت ما يعترف به بعض القبط من تعصب رؤسائهم لهم في جميع المصالح وتهديدهم على المسلمين ومن كان هذا شأنهم فاسناد الوظائف الرئيسية اليهم يخشى ان يفضي الى ما لا تحمد عقباه من التعصب والغلو في الخلاف حيث تكون الحكومة كلها في أيديهم

وليس فيما قاله القبط في مؤتمرهم وما يكررونه كثيراً في جرائدهم أمر ذو بال الا تصريحهم بأن هذه البلاد ليست إسلامية وحكومتها ليست حكومة إسلامية .

ان القبط على احتراسهم في مؤتمرهم وتحاميهم الالفاظ التي تكبر المؤاخذة عليها صرحوا بأنه لا يقول ان هذه البلاد إسلامية للمسلمين فيها ما ليس لغيرهم الا افراد لا يجاوزون عدد الاصابع ، صرح بذلك خطيبهم توفيق بك دوس المحامي والجريدتهم كلام كثير في ذلك أوضح مما قاله خطيب مؤتمرهم . وعلى هذا بنوا وجوب تعليم الدين المسيحي في مدارس الحكومة وبطالة يوم الاحد

فيجب على المؤتمر ان يبين ما يترتب على هذه الدعوى وهو انه اذا كانت الحكومة الخديوية تعترف من نفسها أنها غير إسلامية أو يكرهها المحتلون على ذلك فان المسلمين لا يرضون ان تكون محاكمهم الشرعية تابعة لها ، ولا أوقافهم ومدارسهم الدينية تحت ادارتها ، ولا وضع تركات من يموت منهم عن غير وارث في خزينتها ، بل يطلبون حينئذ ان يستقلوا بجميع امورهم الدينية كالقبط وغيرهم . فاما الحكومة فلا تعترف بهذا واما المحتلون فلا يتحملون ثبعته

لا أحب أن أطيل في المسألة القبطية أصولها وفروعها وانما كتبت ما كتبته من

قبل تنبيه المسلمين الى ماهم في أشد الحاجة اليه ، وهو ان يعرفوا أنفسهم ممن معهم ، ويعرفوا ماهم وما عليهم ، وأنا واثق بأنه يسهل على المؤتمر المصري أن يبين للمنصفين من شعوب المدنية وغيرهم ان القبط غابنون لا مغبونون ، وأن المسلمين مغلوبون بتساهلهم لا غالبون ، وان الخير للقبط ان يقنعوا بما هم فيه من النعم ، وأن لا يطلبوا شيئاً باسم القبط ، ولا ينازعوا في صبغة الحكومة الاسلامية ، وأن يعودوا عما تجرءوا عليه من تهمة المسلمين بالتعصب الديني عليهم لنصرانيتهم ، ومن تحريض أوربة عليهم ، وعن اللهجة البذيئة التي سنتها لهم جرائدهم

كل هذا مما يسهل على المؤتمر بالبراهين ولكن القبط لا تذعن له الا اذا رأت من المسلمين الحزم ومجاراتها في توثيق الرابطة الملية والتعاون الديني على الترقي . فاذا هم عرفوا حدهم ، واعترفوا بحق غيرهم ، فاني أحب للمسلمين أن يستوصوا بهم خيراً ، ويعطوهم أكثر مما يستحقون ، كما كانوا من قبل يفعلون ، ولا أحب للمسلمين ان يرجعوا بصفقة المغبون ، الذي لا هو محمود ولا هو مأجور

* *

أعمال المؤتمر الدائمة

أما أعمال المؤتمر الدائمة فكثيرة لا يمكن شرحها في هذا المقال وانما نشير فيما نقترحه في خاتمته الى أصولها وقواعدها

وأما فائدته فأكبرها عندي ما أشرت اليه آنفاً من توحيد المصالح والاعمال العامة التي تقوم بها الامة دون الحكومة ومساعدتها عليها وتوجيهها الى المقصد الصحيح الذي ترتقي به الامة في معارج الكمال المادي والمعنوي ، ويدور ذلك كله على أربعة أقطاب (١) التربية الملية والتعليم (٢) إرشاد العوام الى تحسين معيشتهم في آدابهم وأعمالهم وصحتهم ومعاملتهم لمن يعيش معهم من موافق ومخالف (٣) حفظ ثروة الامة وتنميتها بالوسائل الحديثة ، والتوقي من الفوائل التي تنتالها (٤) مواساة العاجزين واليائسين وإعانة المنكوبين والغارمين

سيشرح خطباء المؤتمر هذه المقاصد كلها أو بعضها ويبينون وجه الحاجة إلى ما يتكلمون فيه وما ينبغي ان يقرره المؤتمر ويقوم به ، وانما يقرر المؤتمر المطالب العامة بالاجمال ، واما التفصيل الذي يترتب عليه التنفيذ فيتوقف على تأليف لجان تختص

كل لجنة منها بعمل من الاعمال، ويكون روح الاعمال كلها تكوين الامة وتوحيد وجهتها في حياتها الاجتماعية

فاذا بحثنا في مقصد التربية والتعليم نرى ان تربية أبنائنا وبناتنا مفرقة لأجزاء أمتنا ممزقة لاعضائها حائلة دون ان تكون أمة متحدة، لامكونة للأمة . أي ان التربية والتعليم اللذين نتنافس فيهما، ونبذل النفيس لاجلهما، ونظن ان فيهما عزتنا وارتقاءنا، هما حائلان دون كل ما نطلبه من وحدة الامة وارتقائها

﴿ المدارس والتربية والتعليم ﴾

ما هو المقصد العامّ من المدارس، ومن يدير هذه المدارس ويحقق لنا ما نقصد منها، وهل الذين تخرجوا في هذه المدارس متحدون في أفكارهم ومقاصدهم، متوجهون الى توحيد الامة وجعلها مثلهم،

لابقاء للأمة الا بالمحافظة على عقائدها وآدابها وشعائرها الدينية وأخلاقها وعاداتها ولغتها وهي مقوماتها ومشخصاتها التي تكونت بها بالوراثة وفعل القرون كما تكون المعادن في الارض، فاذا طرأ على هذه المقومات والمشخصات بفعل الزمن ما يعيبها ويشوهها ويجعل الاستفادة منها قليلة كان الواجب على المربين والمعلمين ان يزيلوا تلك العيوب كما يزال الصدأ عن الحديد لا ان يزيلوا الجوهر نفسه ويضعوا مكانه جوهراً آخر

قال صلى الله عليه وسلم « تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا » رواه الشيخان. والامم معادن كالافراد وعمل المربين فيها كعمل الصناع في المعادن وبعملهم تظهر مزاياها ومنافعها فمهرة الصناع يصقلون الحديد الاسود حتى يكون أبيض لامعا كالمرآة حتى تفضله بلونه على الفضة المهملة في المكان الرطب يتغير لونها ويزول بهاؤها

كذلك الامم تظهر محاسنها ومنافعها في زمن دون زمن بالتربية والعلم، وجوهرها هو جوهرها لا يتغير في نفسه الا بزواله وفنائه أو ادخاله في جوهر آخر كما يمزج قليل من المائع في غيره فيغيب عن العين ويزول ذلك الوجود الخاص به . فقد كان كل من الشعبين الانكليزي والفرنسي جاهلا لامزية له في عالم المدنية ثم تعلما وارتقيا وبقي كل منهما ممتازاً بمقوماته ومشخصاته فمنها في الاول الرصانة والثبات والبطء في التحول عن الشيء ولو قبيحا، وفي الثاني الذكاء والخفة وسرعة التحول، ولكل من الخلقين المتضادين منافع ومضار، ولكن المنافع هي التي تغلب في طور الحياة والارتقاء، والمضار هي التي تغلب في طور الضعف والانحطاط

غرضنا من هذا المثل إننا محتاجون الى تربية تزيل الصدأ الذي طرأ على جوهر أمتنا حتى يظهر جوهرها نقيا ويسهل الانتفاع به ، والى تعليم نعرف به طرق استعمال مواهبنا الفطرية وخيرات بلادنا فيما يرقينا ويرفع شأننا . ولكن أمر تربيتنا وتعليمنا ليس في أيدينا فلا رأي لسراتنا ولا لأهل العلم والبصيرة منا في أكثره

نلقي بناتنا في مدارس الراهبات ومدارس الامريكان فهل يتعلمن فيها آداب ديننا وأحكامه ويتربين على عباداته وأخلاقه ؟ ألا إننا نعلم أنهن لا يتعلمنها ولكن يتعلمن ما ينفر منها ، ويبعد عنها ، فيخرجن لا نصرانيات على آداب النصرانية ، ولا مسلمات على الآداب والفضائل الاسلامية ، وهل يرجى صلاح بيوت هذا شأن ربتها ؟ أم يرجى ان تكون الامة المكونة من هذه البيوت أمة متحدة مرتقية ؟

عندنا مدارس أهلية ابتدائية للبنات فهل نجد فيها من الفضيلة وآداب الاسلام وعباداته ما نفقده في مدارس الافرنج ؟ لا لا

ان أمثل المدارس مدارس الحكومة ولا غناء فيها ، فجميع مدارس البنات في هذا القطر غير صالحة للتربية التي نحن في أشد الحاجة اليها ، ولا يرجى أن توجد المدارس الصالحة ونحن في هذه الفوضى بالمصادفة ، ولكننا اذا خرجنا بهذا المؤتمر من هذه الفوضى فاننا نجد ما نرجو كما نحب لانه يكون برأي الامة وتدبيرها

ان جميع المدارس المصرية من افرنجية وأهلية وأميرية غير صالحة للتربية الملية التي ترتقي بها الامة بتزكية جوهرها الفطري وحفظ مقوماتها الملية ، كل هذه المدارس تجذب المتعلمين والمتعلمات فيها الى التفرنج فتفتنهم بلغة غير لغتهم ، وآداب غير آدابهم ، وعادات غير عاداتهم ، كما تخفض مقام ماتهم وقومهم في أنفسهم ، وتعلي فيها مقام أقوام آخرين ، كلها آلات محللة بل سيوف مقطعة لمقومات الامة ومشخصاتها ، لا همّ للمتخرجين والمتخرجات فيها الا ان يجدوا مالاً يبذلونه للاجانب ثمنا لما عندهم من اللذات والزينة ، بل يبذلون القناطير منه في القمار والمضاربات ومالا لذة فيه الا الهوس والخبل وفنون الجنون

فعلى المؤتمر ان يتدارك هذا الفساد قبل ان يعم ويتعذر تداركه بفشوه في كل الطبقات والاجماع على استحسانه

تلك إشارة الى وجه الحاجة الى المؤتمر في أحد تلك المقاصد العامة والاقطاب التي تدور عليها مقاصد الامة ، فقس عليه سائرها

وجملة القول ان المرجو من المؤتمر أن يكون سلك النظام للاعمال الحرة التي

تقوم بها الامة من الجمعيات والنقابات والشركات ، بوحد وجهتها ، ويساعد كلا منها بقدر الطاقة

ليس المراد من ذلك ان تكون الجمعيات جمعية واحدة ، ولا الشركات شركة واحدة ولا النقابات كذلك ، ولا ان تتغير قوانينها ونظاماتها ، ولا ان يكون المؤتمر مسيطرا عليها ، فان ذلك ينافي توزيع الاعمال ، ومباراة العاملين ، ولا ترتقي الامم الا بهذا التوزيع الذي هو وسيلة الاتقان

وانما المراد ان هذه المصالح كاعضاء البدن : العينان تبصران والاذنان تسمعان واليدان تعملان والرجلان تسعيان وكذلك الاعضاء الباطنة كالمعدة والكبد تعمل اعمالها كل هذه الاعمال الاختيارية وغير الاختيارية تجري على نظام واحد غايته حفظ البدن كله ، والقلب يمدها كلها بالدم الذي يعينها على اعمالها ، وبالنظام المقدر ، والقدر المبين ، والنظام قوام الوجود ، ومعيار الاعمال ، ووسيلة الكمال ،

اقتراح صاحب المنار

(على المؤتمر المصري)

بسم الله الرحمن الرحيم

« وائتمروا بينكم بمعروف »

أحيي رجال هذا المؤتمر الكرام الذين هم موضع الرجاء في ترقية أهل هذا القطر السعيد وإعلاء شأنه ، وأكاشفهم بما عندي من الرأي وان كنت أظن ان غيري سبقني اليه كله أو بعضه

ان هذا المؤتمر هو الذي يمثل حياة مسلمي مصر الاجتماعية ودرجة ارتقائهم وما يرجى لهم من المزيد وقد سبقهم الى مثله مسلمو الهند . وانما نجاحه بثباته ودوامه ، ولا يثبت ويدوم الا بما تقرر من جعله بمعزل عن السياسة ، وحصر اعماله في ترقية الامة بالتربية والتعليم والكسب والاقتصاد والتكافل والتضامن في المصالح والمرافق . واما تمحيص مطالب القبط وبيان ما هو الحق في هذه المسألة فهو احد أعمال المؤتمر العارضة

فأقترح على المؤتمر أن يكون له خمس لجان دائمة تعمل وتسعى لتحقيق مقصده العالي